العلاقة بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى عند بدوى

د: إبراهيم محمد تركى
أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد
كلية التربية بكفر الشيخ

obeikandl.com

obeikandl.com

تتضمن هذه الدراسة العناصر والنقاط التالية:

١ ــ تمهيد

٢ ــ موقف بدوى من التصوف

٣ ــ أثر التصوف الإسلامى فى نشأة الفكر الأوروبى الحديث.

٤ ــ العلاقة بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى.

ا ــ أوجه التشابه.

ب ــ أوجه الاختلاف

٥ - حقيقة العلاقة بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى.

٦ ــ هل يصلح التصوف أن يكون مصدراً لفلسفة عربية معاصرة؟

٩ ــ الفلسفة العربية المعاصرة هل هى فلسفة وجودية؟

١٠ــ تعقيب.

obeikandl.com

١ ـ تمهيد:

إذا كنت لا أود فى هذا المقام أن أحصى ثناء على الدكتور بدوى، فإنى أكتفى هنا بالإشارة إلى ذلك الرأى، الذى أصبح شائعاً بين المشتغلين بالفكر الفلسفى، والذى يفيد «أن بدوى يعد موسوعة فلسفية متنقلة». وهو رأى لا يجانبه الصواب فيما أعتقد. إذ إن الذى يراجع قائمة أعمال هذا العالم الجليل[١] يستطيع أن يلمس بسهولة كيف أن الرجل كتب فى مختلف موضوعات الفكر الفلسفى.

وفى مجال الفكر الفلسفى الإسلامى بصفة خاصة، يمكن بسهولة ملاحظة أن بدوى قد اهتم بالكتابة فى مجالات الفكر الفلسفى الإسلامى المختلفة، سواء أكانت كتاباته فى هذا الصدد تأليفاً أم تحقيقاً لنصوص من التراث أم ترجمة لكتابات المستشرقين.

كان من الطبيعى ـ إذن ـ أن يخوض بدوى فى مجال من مجالات الفكر الفلسفى وهو «التصوف».

وإذا كنت لا أود أن أتحدث عن إسهامات الدكتور بدوى فى مجال التصوف، فإنى أود أن أشير هنا إلى نقطة هامة تتعلق بموقف عبد الرحمن بدوى، باعتباره مفكراً له اتجاهه الفلسفى الخاص الذى يتمثل فى تبنيه للمذهب الوجودى من التصوف الإسلامى.

فمن الملاحظ أن بدوى قد التزم بالموضوعية إلى حد كبير فى كتاباته عن الصوفية، أو عن غيرهم من المفكرين الذين كتب عنهم.. ولكن هذا الالتزام الدقيق بالموضوعية لم يمنعه من تكوين رأيه الخاص به فى بعض المسائل. وهذا أمر طبيعى من الباحث المتعمق فى أبحاثه.

وفيما يلى سنحاول التعرف على وجهة نظره فى مسألة هامة من المسائل المتعلقة وهى المشابهة فى بعض الجوانب بين التصوف الإسلامى وغيره من تيارات الفكر الحديث والمعاصر. ولما كان الرجل متبنياً للمذهب الوجودى، لذلك لم يغفل عن الإشارة إلى وجود بعض أوجه التشابه بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى. إذا كنت سأركز ـ فيما يلى ـ على محاولة توضيح رأيه فى هذه المسألة، فإنى أود أن أقدم لذلك بالإشارة إلى وجهة نظره العامة للتصوف.

٢ ـ موقف بدوى من التصوف:

يتضح موقف عبد الرحمن بدوى من التصوف خلال مقدمته لكتابه «تاريخ التصوف الإسلامى من البداية حتى نهاية القرن الثانى». ويمكن إيجاز ما قدمه فى هذا الصدد فيما يلى:

(أولاً) يعد التصوف جانباً من أخصب جوانب الحياة الروحية الإسلامية. وذلك للأسباب الآتية:

(أ) اعتباره تعميقاً لمعانى العقيدة.

(ب) اعتبارة استبطاناً لظواهر الشريعة.

(جـ) اهتمامه بالتأمل فى أحوال الإنسان فى الدنيا.

(د) اهتمامه بتأويل الرموز والشعائر بحيث يهبها قيماً موغلة فى الأسرار.

(هـ) اهتمامه بالعمل على انتصار الروح على الحرف (أى على الأمور الظاهرية).

(ثانياً): إن آفة التصوف هى آفة كل علم إنسانى، وهى الانحراف عن روحه والابتعاد عن الغاية منه وإساءة فهم مقاصده. فآفة التصوف هى اتخاذ المظهر فى اللباس والبوادر بدلاً من السلوك المطابق فى روحه لمبادئ التصوف، والتعلق بالمجاهدات الخارجية بينما الباطن خرب يتردى فى هاوية الرذائل والتبطل وعدم السعى ابتغاء للعيش والتنعم على حساب الآخرين.

(ثالثاً): يعد الصوفية صفوة مختارة، تقدم بسلوكها نماذج عليا للسلوك ومثلاً للاستلهام والتأسى قدر الطاقة. وليس من المطلوب أن يكون عامة الناس صوفية وإلا لاختل نظام الحياة الإنسانية، كما أنه ليس من المطلوب أن يكون عامة الناس علماء، مبتكرين عاكفين على البحث العملى الخالص ولا أن يكونوا شعراء أو فنانين. فمن السخف ومن سوء النية أن يطعن على الصوفية بالقول إنه «لو صار الناس صوفية لاختل نظام الإنسان». ومن المعلوم أنه لا يوجد صوفى واحد فى أى دين يطالب بأن يعم التصوف الناس بل ولا أن يكثر عدد الصوفية، لأن التصوف إنما هو من شأن خاصة الخاصة، ولكن إذا كان هذا ينطبق على سلوك طريق التصوف فإنه لا ينطبق على التأسى بسلوك الصوفية واستلهام القدوة من سيرهم.

هذه هى أهم النقاط التى توضح رأى بدوى فى التصوف وموقفه منه(٢).

وأود أن أشير إلى أننى أوافقه تماماً على كل ما ذكره ولكنى لا أود أن أقدم تفصيلاً لهذه النقاط، لأن الحديث فى هذه الدراسة الموجزة ليس مخصصاً - بصفة أساسية - للحديث عن موقف هذا المفكر العملاق من التصوف. وإنما أردت من هذه الإشارة أن أوضح، بل وأؤكد، أن الرجل قد نظر إلى التصوف نظرة موضوعية تخلو من التعصب.

٣ - أثر التصوف الإسلامى فى نشأة الفكر الأوروبى الحديث:

فى إطار الحديث عن دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى، يشير الدكتور بدوى إلى أثر التصوف الإسلامى فى هذا الصدد.

فيقرر أن أثر التصوف الإسلامى فى نشأة التصوف الأوروبى أمر لم يعد من الممكن إنكاره، بعد الدراسات الممتازة التى قام بها المستشرق الأسبانى العظيم آسين بلا ثيوس وأيدتها النصوص الجديدة التى تتكشف باستمرار، يتحدث عن ثلاثة نماذج ظهر فيها هذا التأثير، وهى:

(أولاً): ابن عباد الرندى (توفى سنة ٧٩٢ هجرية)، وهو متصوف أندلسى من أتباع الطريقة الشاذلية، وتأثيره فى **الصوفى الأسبانى الأكبر يوحنا الصليبى**.

(ثانياً): الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية)، وهو متصوف سنى له اتجاهه الفلسفى ونزعته الكلامية، وتأثيره فى **المفكر الفرنسى بسكال** فى دفاعه عن الدين، وخاصة فى إثبات عقيدة الإيمان بالآخرة.

(ثالثاً): ابن عربى (توفى سنة ٦٣٨ هجرية)، الصوفى المتفلسف، وتأثيره فى تصورات المفكر الإيطالى **دانتى** عن الحياة الأخروية كما قدمها فى الكوميديا الإلهية.(٣)

ولابد من الإشارة هنا إلى أنه بالرغم من أن بدوى لم يكن أول من أثار هذه المسألة من بين المفكرين العرب المعاصرين(٤)، فإنى أتفق معه فيما قدمه تمام الاتفاق..

ويبدو أن هذه المسألة هى التى تفتح الباب للحديث عن علاقة التصوف الإسلامى بالمذهب الوجودى، باعتباره أكثر تيارات الفكر الأوروبى الحديث حديثاً عن الوجود الفردى للإنسان، وإن كنت لا أنكر وجود علاقة من نوع ما بين التصوف الإسلامى وبين آراء العديد من المفكرين الأوروبيين.

٤- العلاقة بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى

إذا كان العقاد، رحمه الله، قد أشار إشارة عابرة إلى وجود علاقة تشابه بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى(٥)، فإن بدوى يعد أول مفكر عربى يتوسع فى بيان أوجه

التشابه بين هذين الاتجاهين.(٦)

ويبدو بوضوح للباحث، الذى يدرس فكر الدكتور بدوى بإمعان، أن الرجل إذ كان يتبنى المذهب الوجودى، فإنه قد أخذ على عاتقه إقامة مذهب فلسفى وجودى يصطبغ بالصبغة العربية، بحيث يمكن أن يسمى بـ .. **الوجودية العربية**، وهو اصطلاح استخدمه الدكتور عبد الرحمن بدوى نفسه.(٧)

وإذا كان بدوى، بهذه المحاولة، يعد من الرواد الأوائل فى الفكر العربى المعاصر الذين حاولوا إقامة مذهب فلسفى عربى معاصر، أياً ما كان هذا المذهب، فإننى أتجاسر هنا وأثبت ملاحظتين على هذه المحاولة:

الملاحظة الأولى: مؤداها أنه إذا كان الدكتور بدوى قد دعا إلى إقامة مذهب فلسفى عربى معاصر يسمى بالوجودية العربية، وإذا كان قد أشار إلى وجود أصول لهذا المذهب لدى صوفية الإسلام وخاصة المتأخرين منهم، وقد عرض هذه الفكرة فى محاضرة له بعنوان «**أوجه التشابه بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى**» والتى نشرها فى كتابه «**الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى**» (الذى صدر فى القاهرة عام ١٩٤٧)، فإن من الملاحظ أنه على الرغم من مواصلة الكتابة عن التصوف الإسلامى وعن المذهب الوجودى، فإنه لم يتوسع التوسع الكافى الذى كان منتظراً منه فى تدعيم هذا المذهب الفلسفى العربى المعاصر.

الملاحظة الثانية: مؤداها أنه إذا كان بدوى قد تصدى لبيان الأصول «التراثية» المستمدة من التصوف الإسلامى للمذهب الفلسفى العربى المعاصر الذى يريد إقامته والذى يسميه بالوجودية العربية، وذلك بتقديم قراءة وجودية لبعض النصوص الصوفية الإسلامية أو فهم وجودى لبعض قضايا التصوف الإسلامى، فإن ما فعله هذا المفكر العملاق لا يعدو أن يكون «استيراداً» لمذهب فلسفى أوروبى فى جميع جوانبه وجعله قالبا يصب فيه ما وجده ملائماً من أقوال وأحوال الصوفية المسلمين.

والذى يؤكد صحة ما أذهب إليه فى هذه الملاحظة الثانية أن هناك ثلاثة اعتبارات قد حكمت موقف بدوى من مسألة العلاقة بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى يمكن الإشارة إليها طبقاً لأقواله هو كما يلى:

الاعتبار الأول: ضرورة تقدير المذاهب الصوفية (وخاصة ما كان منها له طابعه الفلسفى

أو النظرى) حق قدرها وإضفاء نور وهاج عليها من التفسير الوجودى الحديث، حتى تتبدى بكل ثرائها وقيمتها الحقيقية.(٨)

الاعتبار الثانى: أن يكون فى هذه الدراسة نوع من الاستفادة والاستلهام، واتخاذ نقطة البدء فى المذهب الوجودى العربى الذى يود عبد الرحمن بدوى أن يجعل منه الفلسفة العربية الجديدة فى الحياة والوجود. وهو يريد بهذا أن يتخذ المتبنون لهذا المذهب العربى الجديد من هؤلاء الصوفية العرب ما اتخذه الوجوديون الأوروبيون من كير كجورد، ومن إليه ممن يعدون آباء الوجودية الأوروبية، وعن هذا الطريق نستطيع أن نجعل للمذهب الوجودى أصولاً من تاريخنا الروحى. وهذا على جانب من الخطر عظيم لأن العقبة التى تحول بيننا (نحن العرب) وبين الصدور مباشرة عن كير كجورد مثلاً (وهو المؤسس للمذهب الوجودى) هى أنه لا يمكن أن يُفهم، وبالتالى أن ينفذ إلى المرء تأثيره الروحى إلا فى داخل العالم المسيحى الأوروبى.(٩)

الاعتبار الثالث: إن القول بوثاقة الصلة بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى، وما يؤدى إليه من القول بإمكان أن تكون الصوفية الإسلامية مصدراً يصدر عنه المفكر الذى يتخذ المذهب الوجودى العربى، الذى يريد إقامته فلسفة شاملة فى هذا العصر، لا ينبغى أن يفهم منه أنه دعوة إلى نبذ كير كجورد وهيدجر ويسبرز وبقية الوجوديين الأوروبين، إذ إنه لولا هؤلاء لما عرفنا الوجودية ولا انتهينا إليها بأنفسنا من مجرد اتخاذ الأصول العربية المصادر الوحيدة.(١٠)

هذه هى أهم الاعتبارات التى سار على أساسها بدوى فى تقريره لوجود علاقة مشابهة بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى، وما أدى إليه تقريره لهذه العلاقة من اعتبار التصوف الإسلامى مصدراً للوجودية العربية التى يدعو إليها هذا المفكر العملاق. هذه الوجودية العربية المعاصرة التى تتخذ قالبها الأساسى أو إطارها العام من المذهب الوجودى الأوروبى، وتصب فيه تلك المستمدة من تراثنا الفكرى والروحى.

٥- أوجه التشابه

فى سبيل تقريره وجود علاقة بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى، يتحدث بدوى عن أوجه التشابه بينهما، وذلك فى محاضرته المذكورة فى غير هذا الموضوع.

وإذا كنت لا أود أن أقدم فى هذا المقام تلخيصا لهذه المحاضرة، لأنها مختصرة

والاطلاع عليها متيسر، فإنى أكتفى هنا بأن أشير إلى أهم النقاط الممثلة لأهم أوجه التشابه بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى. وهى:

(أولاً): يبدأ كل من التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى من الوجود الذاتى، ويقيم من أحواله مقولات عامة للوجود، باعتبار أن الوجود يعد سابقاً على الماهية، وباعتبار أنه ليس هناك وجود حقيقى غير الوجود الذاتى، وباعتبار تحليل الوجود الذاتى باعتباره الوجود الحقيقى.

(ثانياً): هناك تشابه واضح بين فكرة الإنسان الكامل لدى الصوفية المسلمين، وفكرة الأوحد لدى كير كجورد، من حيث الصفات التى يتصف بها كل منهما.

(ثالثاً): هناك تشابه بين ما ذكره بعض الصوفية من الإشراقيين عن علاقة العدم بالوجود المطلق، وما ذكره الوجوديون فى هذا الصدد، ويعتمد الدكتور عبد الرحمن بدوى فى هذه النقطة على كتاب «المثل العقلية الأفلاطونية» وهو لمؤلف مجهول.

(رابعاً): تشابه الفكرة الوجودية الأساسية عن «سبق الوجود على الماهية» مع آراء بعض الصوفية، مثل قول المؤلف الإشراقى المجهول لكتاب «المثل العقلية الأفلاطونية» إن «الماهية أمر اعتبارى والوجود أمر حقيقى»، وقول بعض الصوفية (وخاصة ابن عربى) بما يسمى «الأعيان الثابتة».

(خامساً): التشابه بين مفهوم «القلق» عند الوجوديين وخاصة كما تحدث عنه هيدجر، وما قدمه أحد الكتاب المتأخرين فى التصوف (وهو صاحب كتاب « جامع الأصول فى الأولياء»)عن معنى القلق.

(سادساً): التشابه بين كير كجورد فى اتخاذه القصص الدينية أساطير للتفسير الوجودى، ومافعله بعض الصوفية المسلمين (وخاصة الحلاج والسهر وردى وابن عربى) الذين استخرجوا من قصص الأنبياء المعانى الروحية التى تتفق مع آرائهم.

هذه هى أهم النماذج التى قدمها بدوى لتوضيح علاقة التشابه القائمة بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى. وأود أن أشير فى هذا المقام إلى ملاحظتين:

الملاحظة الأولى: مؤداها أن هذه النماذج التى عرضها مفكرنا العملاق باعتبارها ممثلة لأوجه التشابه بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى لا تمثل إلا جانبا ضئيلاً من التراث الصوفى الإسلامى، حقيقة لقد أشار بدوى إلى أن هناك مئات النماذج التى تمثل

أوجه التشابه بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى، ولكنه لم يشر إليها، أو إلى عناوينها على الأقل، حتى يتسنى للباحثين التوسع فى هذا الموضوع.

الملاحظة الثانية: مؤداها أن هذه الأفكار والآراء المحدودة التى التقطها عبد الرحمن بدوى من بين نفائس التراث الصوفى الضخم لبيان علاقة التشابه بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى لا تصلح فى ذاتها لهذا الغرض، إلا بعد إجراء تكييفات معينة لها تتمثل فى تأويلها بحيث تتفق مع معطيات المذهب الوجودى، وقد اعترف بدوى نفسه بذلك وصرح بأنه هو المسئول عن هذه التأويلات فهل معنى هذا أن التصوف الإسلامى - فى ذاته، وفى إطاره العام على الأقل - لا يرتبط برباط وثيق من التشابه مع المذهب الوجودى؟ أو على الأقل هل التشابه بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى لا ينبغى أن يفهم إلا باعتباره أمراً ثانوياً أو عارضاً؟ هذا ما أميل إليه، وخاصة إذا نظرنا إلى جوانب الاختلاف الجوهرية بينهما، كما سأشير إلى ذلك فيما يلى.

٦ - أوجه الاختلاف

إذا كان هناك أوجه اتفاق بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى، كما أشرت إلى ذلك، فإنه يمكن القول إنه من الملاحظ أن ثمة أوجه خلاف أساسية بين كل منهما.

وإذا كان هذا المقام لا يسمح بالحديث التفصيلى عن أوجه الخلاف بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى، فإننى أكتفى بالإشارة هنا - فى اختصار - إلى أهم المسائل التى يبدو فيها الخلاف واضحا بين التصوف الإسلامى على وجه العموم والمذهب الوجودى ويمكن إجمالها فيما يلى.

(أولاً): فى مسألة الحرية، حيث يتبنى الصوفية المسلمون، على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية ونزعاتهم المذهبية، القول الصريح بالجبر، بينما يتبنى الوجوديون القول الصريح بالحرية الإنسانية **(ثانياً)**: فى مسألة الموت. حيث نظر كل من الصوفية المسلمين والفلاسفة الوجوديين من زاوية مختلفة عن الزاوية الأخرى.

فالموت عند الصوفية هو «خروج الروح من البدن» أو هو «زوال الحياة»، بينما الموت عند الوجوديين هو «توقف إمكانات الوجود الفردى». كما أن الصوفية المسلمين قد تحدثوا كثيراً عن الحياة بعد الموت، بينما أغفل الوجوديون الحديث عن هذه المسألة تماماً، وأخيراً، وليس آخراً، فإن الحديث عن الخوف من الموت مختلف تماماً لدى كل منهما.(١١)

(ثالثاً): فى مسألة الاغتراب، وهى من أهم المسائل التى اهتم بالحديث عنها كل من الصوفية المسلمين والفلاسفة الوجوديين. ولكن من الملاحظ أن نظرة كل منهما إلى هذه المسألة اختلفت اختلافاً واضحاً. فإذا كان الصوفية المسلمون نظروا إلى الاغتراب من منظور دينى، فإن الفلاسفة الوجوديين قد نظروا إليه من منظور أنطولوجى، وبالتالى فإن حديث الصوفية المسلمين عن الاغتراب لا يمكن أن نجد ما يماثله عند الفلاسفة الوجوديين حتى لو بالغنا فى التأويل.

(رابعاً): فى مسألة الوجود الذاتى أو الفردى للإنسان، إذا كان الصوفية المسلمون قد اشتركوا مع الفلاسفة الوجوديين فى التأكيد على هذه النزعة الذاتية، بحيث أصبحت من مواضع التشابه الهامة بين كلا النزعتين، فإن ثمة خلافاً أساسياً بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى حول هذه النقطة يتمثل فى فكرة الصوفية، التى تعد ثمرة سلوك طريق التصوف، عن انمحاء الذات أو تلاشى الشخصية الفردية فى الموجود المطلق الذى هو الحق سبحانه. هذه الفكرة التى تعرف عند الصوفية باسم «الفناء» لا نجد لها نظيراً فى الفكر الوجودى، بل ويمكن القول إنها من أبرز نقاط الخلاف بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى، إذ إن النزعة الذاتية عند الصوفية لا ينبغى أن تفهم على أنها تأكيد للذات الفردية، كما هو الأمر عند الوجوديين، بل على أنها تعنى أن التصوف إنما هو تجربة ذاتية ذوقية، وهذا أمر لا صلة له بالفلسفة الوجودية.

هذه هى بعض أوجه الخلاف بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى. وإذا كنت لم أرد بذكرها هنا أن أحصيها فإنى قد أردت - فقط - أن أوضح أنه كما أن ثمة أوجه اتفاق بين هاتين النزعتين، فإن ثمة أوجه اختلاف بينهما. ولعل كفة الاختلاف تكون راجحة على كفة الاتفاق، لأننى لم ألجأ هنا إلى التأويل الذى لجأ إليه الدكتور بدوى.

٧- حقيقة العلاقة بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى:

إذا كان قد تبين لنا من خلال الحديث عن أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى أن التشابه بين هاتين النزعتين ليس تشابهاً كلياً، وإنما هو تشابه جزئى يتمثل فى وجود بعض القضايا المتشابهة لدى كليهما، فهل يمكن القول إن المذهب الوجودى قد تأثر فى هذه القضايا بالتصوف الإسلامى؟

إننا لكى نقرر وجود التأثر من جانب المذهب الوجودى بالتصوف الإسلامى لابد أن نقرر وجود علاقة تاريخية بينهما.

فهل يمكن لنا أن نقول بوجود هذه العلاقة، خاصة وأننا قد أشرنا إلى وجود علاقة تاريخية بين التصوف الإسلامى وبين بعض أعلام الفكر الأوروبى طبقاً لوجهة نظر الدكتور عبد الرحمن بدوى؟ إننى أعتقد، فى شىء من الاطمئنان، أن النفى هو الرد على هذا التساؤل، خاصة وأنه لا توجد لدينا شواهد تاريخية واضحة تؤيد وجود هذه العلاقة التاريخية. وقد كان الدكتور بدوى محقاً - تماماً - حين أشار إشارة خاطفة إلى عدم وجود صلة تاريخية بين كلا الاتجاهين.

فإذا كان الثابت عدم وجود علاقة تاريخية بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى، فكيف نفسر وجود علاقة التشابه بين بعض جوانب التصوف الإسلامى وبين المذهب الوجودى، خاصة وأن كلاً منهما كان منتمياً إلى حضارة مختلفة عن الحضارة الأخرى تمام الاختلاف؟

لكى تتسنى لنا الإجابة عن هذا التساؤل يمكن إيراد الاحتمالين التاليين، وهما فى تقديرى متكاملان:

الاحتمال الأول: أن دراسة التصوف المقارن تطلعنا على أن ثمة جوانب تشابه بين الصوفية فى مختلف الحضارات والثقافات، باعتبار أن ثمة خصائص عامة للتصوف. ولما كان كير كجورد، وهو مؤسس المذهب الوجودى كما هو معلوم، له نزعته الصوفية التى انطلق منها فى الحديث عن تجربته الوجودية، فلا غرو إذن أن تكون بعض آراء كير كجورد، المتصوف - أولاً - والوجودى - ثانياً - الذى تبنى آراءه تلامذته الوجوديون، لها ما يشابهها فى التصوف الإسلامى أو ربما فى التصوف الهندى.

الاحتمال الثانى: يقوم على أساس القضية التى ينادى بها علماء الأنثرو بولوجيا، والتى مؤداها أن العقل البشرى واحد فى جميع الحضارات وفى مختلف الثقافات، فإذا عرضت عليه مقدمات متشابهة انتهى إلى نتائج متشابهة وطبقاً لذلك، فإنه يمكن إرجاع تشابه بعض القضايا والأفكار فى التصوف الإسلامى مع المذهب الوجودى إلى أن بعض الصوفية المسلمين قد بدأوا من مقدمات تتشابه مع تلك التى بدأ منها المفكرون الوجوديون، أما لماذا تشابهت البدايات لدى كلا الفريقين؟ فإن هذا يرجع إلى تشابه التجارب الشعورية، لأن الإنسان هو الإنسان الذى تنتابه المشاعر فى كل زمان ومكان.

وعلى أى الأحوال، فإن هذه محاولة من جانبى لتبرير وجود بعض أوجه التشابه بين

التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى حيث إنه لا توجد أية شواهد على وجود علاقة تاريخية بينهما.

أما عن وجود أوجه خلاف بينهما، فإنه أمر لا يحتاج إلى تفسير طالما أن كلاً منهما متباعد عن الآخر زمانياً ومكانياً.

٨- هل يصلح التصوف أن يكون مصدراً لفلسفة عربية معاصرة؟

الذى يدعونى إلى طرح التساؤل عما إذا كان التصوف يصلح أن يكون مصدراً لفلسفة عربية معاصرة، أن بدوى قد أشار إشارات متكررة فى محاضرته إلى ضرورة دراسة التصوف الإسلامى وتحليل آراء الصوفية وتأويل بعضها عندما تدعو الضرورة إلى ذلك، وذلك لكى نتخذ منها مصدراً لفلسفة وجودية عربية معاصرة.

وإذا تركنا - الآن - جانباً الحديث عن الفلسفة الوجودية العربية التى يدعو الدكتور بدوى إليها، فإنى أود أن أركز هنا على الحديث عن التصوف الإسلامى باعتباره مصدراً لفلسفة عربية معاصرة أياً ما كانت هذه الفلسفة.

وهنا أستطيع أن أقول إنه إذا كانت الفلسفة ينبغى أن تكون معبرة عن الواقع الحضارى، بحيث يواكب ازدهار هذه الفلسفة ازدهار الحضارة التى تعيش فيها هذه الفلسفة وتعبر عنها أصدق تعبير، فإن من مقومات ازدهار الحضارة التى ينبغى أن يكون لها فلسفة تعبر عنها، أمور منها: العقل والحرية والدين. والفلسفة التى تعبر عن الحضارة التى تسعى إلى الازدهار، لابد أن تكون قريبة إلى حد كبير من هذه المقومات الثلاثة الأساسية.

وهنا يحق لنا أن نتساءل عما إذا كان التصوف يمكن أن يتوافق أو ينسجم مع هذه المقومات الثلاثة للازدهار الحضارى، ومن ثم تتحدد مدى صلاحيته لأن يكون مصدراً للفلسفة العربية التى تعبر عن الحضارة المنشودة. وللإجابة على هذا التساؤل أستطيع أن أقول فى إيجاز:

(أولاً): إن دور العقل فى مجال التصوف محدود إلى حد كبير لأن التصوف فى جوهره تجربة ذوقية وجدانية، ولذلك لا يتخذ الصوفية من العقل مصدراً للمعرفة وإنما المصدر الأساسى للمعرفة عندهم هو الكشف.

(ثانياً): إذا كان التصوف يشكل البعد الجوانى للدين، لأنه يهتم بالجانب الروحى فى المحل الأول، فإن الدين (وأقصد أساسا الدين الإسلامى) لا يهتم بالبعد الجوانى على

حساب البعد البرانى الذى يتناول الحياة الجسدية للإنسان.إذن فالتصوف ليس هو الدين ولكنه تعمق مبالغ فيه فى جانب من جانبيه: هو الجانب الروحى، دون الاهتمام بالدرجة الكافية بالجانب الجسدى حتى يحدث «التعادل» المنشود للإنسان.

وهكذا، فإنه يمكن القول إنه إذا كان التصوف، كما رأينا، لا ينسجم بدرجة كافية مع المقومات الأساسية للحضارة فإنه لا يصلح، من هذه الزاوية فى المحل الأول، أن يكون مصدراً أساسيا لفلسفة عربية معاصرة.

أضف إلى ذلك، أن الجوانب التى يدعو بدوى إلى إحيائها واتخاذها مصدراً للفلسفة الوجودية العربية إنما هى جوانب خاصة من التراث الصوفى، قد ظهرت وازدهرت إبان عصور تدهور الحضارة الإسلامية. فكيف يتسنى اتخاذ آراء هذا حالها مصدراً لفلسفة تعبر عن حضارة ينشد لها أصحابها الازدهار.

وهنا ينبغى أن أبادر فأقول إنى لا أرفض أن يكون التصوف الإسلامى - برمته أو فى جملته وتفصيلاته - مصدراً لفلسفة عربية معاصرة. ففى التصوف الإسلامى جانبان: جانب يتفق مع الدين فى مجالى العقيدة والتشريع، وجانب آخر يبتعد أصحابه عن الدين بدرجات متفاوتة. فلا جناح علينا إذا استفدنا من الجانب الأول لما فيه من جوانب تربوية لا يمكن إغفال قيمتها.

وبناء على ذلك، فإنه يمكن أن أقرر، فى شىء من الاطمئنان، أن اعتبار التصوف الإسلامى مصدراً أساسياً لأية فلسفة عربية معاصرة إنما هو أمر غير مقبول. أما اعتباره مصدراً ثانوياً، وفى جوانبه التربوية فقط، فإنه أمر لا يمكن رفضه.

٩- **الفلسفة العربية المعاصرة هل هى فلسفة وجودية؟**

إذا كان عبد الرحمن بدوي قد اقترح قيام فلسفة وجودية عربية يشكل التصوف الإسلامى أحد عناصرها الرئيسية، وإذا كنت قد أشرت إلى ضعف إمكانية كون التصوف مصدراً لأية فلسفة عربية معاصرة، فإنى أود فى هذا المقام أن أجيب عن التساؤل عما إذا كانت الفلسفة الوجودية تصلح لأن تكون فلسفة عربية، بعد صياغتها صياغة عربية ومزجها بعناصر من التراث الإسلامى، بحيث تصبح معبرة عن الحضارة العربية المنشودة.

ولكى يمكن الإجابة عن هذا التساؤل، فإنى أود أن أشير إلى الأمور الآتية:

(أولاً): إن الفلسفة الوجودية قد نشأت فى الواقع الحضارى الأوروبى فى القرن الماضى، فهى بذلك منفصلة وبعيدة، بل وغريبة، عن الواقع العربى المعاصر. فإذا حاولنا

إضفاء الصبغة العربية عليها، فإننا نكون قد استوردنا فلسفة أجنبية وحاولنا صبغها بالصبغة العربية، مع أنه من المفترض أن تكون الفلسفة نابعة من الواقع الحضارى معبرة عنه.

(ثانياً): لقد نشأت الفلسفة الوجودية فى ظل المسيحية البروتستانتية التى كان يعتنقها كير كجورد مؤسس المذهب الوجودى، ثم اتخذ المذهب الوجودى بعد ذلك اتجاهاً مضاداً للدين بدأ بمهاجمة كير كجورد للمسيحية. ولذلك تعد الفلسفة الوجودية غريبة تماماً على الفكر العربى الذي يتمسك - فى أغلب الأحيان - بالإسلام.. وقد صرح الدكتور عبد الرحمن بدوى نفسه أن هذه العقبة من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، إزالتها بتقديم فكر كيركجورد الوجودى فى صورة عربية.

(ثالثاً): يرى بدوى أن شأن المذهب الوجودى بالنسبة للحضارة العربية الناشئة فى عصرنا الحاضر هو نفسه شأن مذهب الأفلاطونية المحدثة بالنسبة للحضارة العربية السالفة، من حيث إن كلاً منهما يقوم على الحد الفاصل بين الحضارتين المتداعية والناشئة(١٢).

ولما كان مذهب الأفلاطونية المحدثة لم يشكل الفلسفة العربية الإسلامية الحقيقية، إذ كانت المذاهب الفلسفية للفلاسفة الإسلاميين المتأثرين بالأفلاطونية المحدثة غير معبرة تماماً عن الحضارة الإسلامية، وغير متفقة تماماً مع الدين، ولذلك كانت ضعيفة الأثر فى ازدهار الحضارة الإسلامية. بينما كانت مذاهب أخرى، وخاصة مذاهب المتكلمين، أكثر قوة فى التأثير فى ازدهار الحضارة الإسلامية، لأنها كانت معبرة عن واقع تلك الحضارة ومتفقة مع الدين. ولذلك قال المستشرق الفرنسى آرنست رينان: «إن الفلسفة الإسلامية الحقيقية ينبغى أن تُلتمس فى مذاهب المتكلمين»(١٣). لذلك فإنه إذا كانت الفلسفة العربية المعاصرة هى الفلسفة الوجودية فإنها ستكون غير نابعة من الواقع الحضارى العربى المعاصر، ولن تكون مواكبة لازدهار هذه الحضارة. بل لابد أن تظهر إلى جانبها فلسفات أخرى.

وطبقاً لذلك، فإننى أستطيع أن أقول إن المذهب الوجودى لا يصلح أن يكون فلسفة عربية معاصرة تعبر عن روح هذه الحضارة المنشودة وتواكبها فى ازدهارها المرتقب.

ولكن هذا لا يعنى أنى أنكر إمكان قيام مذهب فلسفى وجودى عربى معاصر، ولكن

سيكون وجوده هامشياً إلى جانب فلسفات عربية معاصرة أخرى مقترحة مثل «الجوانية» التى دعا إليها «الدكتور عثمان أمين أو «التعادلية» التى دعا إليها توفيق الحكيم، وهى فلسفات لم توف حقها حتى الآن من التأصيل والتعميق والتنظير والدراسة.

١٠- تعقيب:

هكذا تحدثت فيما سبق عن موقف الدكتور بدوى، وهو أحد عمالقة الفكر العربى المعاصر، من مسألة العلاقة بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى.

وإذا كنت قد أشرت إلى اتفاقى معه في بعض المواضع، فإن اختلافى معه فى مواضع أخرى لا يعنى أنى أنكر قيمة فكره فى وضع الدعائم الأساسية لفكرنا العربى المعاصر. إذ إن معالم هذا الفكر لا يمكن أن تتحدد بدون مثل هذه المناقشات.

وبعد ..

فلعلى أكون - بهذه الدراسة المتواضعة - قد كشفت عن جانب هام من جوانب فكر بدوى المتعددة. هذا الجانب الذى يكاد أن يكون مهملاً من قبل الباحثين والدارسين فى مجال الفكر الفلسفى عموماً، وفى مجال الفكر الفلسفى العربى خصوصاً.

الهوامش

(١) انظر القائمة الكاملة لأعمال الدكتور عبد الرحمن بدوى فى: مجلة «أدب ونقد» التى تصدر فى القاهرة، العدد رقم ١٠٠، ديسمبر ١٩٩٣، ص ٦٧ وما بعدها.

(٢) دكتور عبد الرحمن بدوى: (تاريخ التصوف الإسلامى من البداية حتى نهاية القرن الثانى) ، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٥، التصدير.

(٣) دكتور عبد الرحمن بدوى: (دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى)، وكالة المطبوعات - دار القلم، الكويت - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٩٧٩، فى ٢٣ - ٢٩.

(٤) يعتبر المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد، فيما أعلم، أول مفكر عربى معاصر تحدث عن هذا الموضوع، وذلك فى كتابه «أثر العرب فى الحضارة الأوروبية».

(٥) انظر بصفة خاصة:

عباس محمود العقاد: (دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعية)، القاهرة ١٩٦٩، ص ١٤٩ وما بعدها، مقال بعنوان «تصوف إقبال من الهند أو من الإسلام».

(٦) دكتور عبد الرحمن بدوى: (الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى)، وكالة المطبوعات - دار القلم، الكويت - بيروت ١٩٨٢ص ٧١ وما بعدها، مقال بعنوان «أوجه التشابه بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى».

(٧) انظر: (الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى) ص ٩٩، ١٠٦.

(٨) الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى ص ٩٩.

استدراك: هل يرى الدكتور عبد الرحمن بدوى أن المذاهب الصوفية - فى ذاتها - لا قيمة لها ولا ثراء فيها إلا إذا أضفينا عليها نوراً وهاجاً من التفسير الوجودى؟ هذا ما أفهمه من كلامه هنا، وهذا ما أختلف معه فيه.

(٩) الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى ص ٩٩ - ١٠٠.

(١٠) الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى ص ١٠٦.

(١١) عن موضوع الموت عند الصوفية انظر:

دكتور إبراهيم محمد تركى: فلسفة الموت عند الصوفية، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا ١٩٩٤.

(١٢) الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى ص ٨.

(١٣) أورده: الشيخ مصطفى عبد الرازق: (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٢.